قضايا

لماذا تركز إسرائيل على الوجود والحضور، سياسياً وعكسرياً وأمنياً، في القارة الأفريقية؟ ما حقيقة هذا الوجود ومتى بدأ؟ ما هي المصالح التي تحكمه؟ وما هي الحوامل الأيديولوجية التي تسنده؟ هنا قراءة موسّعة في هذا الأمر

من «نموذج تنموي» إلى تكريس شراكة الهيمنة

إسرائيل في أفريقيا

محمد عبد الكريم أحمد

رئيس تشاد إدريس ديبي، ورئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، يوقعان وثائق استئناف العلاقات في انجامينا في 2019/1/20 (فرانس برس)

اكتسبت مسألة «الوجود الإسرائيلي» في أفريقيا، وجذوره الصهيونية، أهمية كبيرة، لارتباطه عضويًا بالصراع العربي الإسرائيلي، حتى قبل قيام «دولة إسرائيل»، فيما تجسّد في التصور «الأفريقي»-الصهيوني المتبادل، وتفهم «أفريقي» نخبوي للصهيونية ومبرّراتها ومشروعها منذ نهاية القرن التاسع عشر. وظل ملفتًا ارتكاز الرؤية العربية لهذا الوجود على تجاوز فرضية المصالح المشتركة بين إسرائيل والدول الأفريقية التي قامت بينها علاقات وصلات وارتباطات في ملفات عدة، أبرزها الأمني والاقتصادي، والوقوف عند تداعيات «التغلغل» و«النفوذ» الإسرائيلي في القارّة على الأمن القومي العربي، بمعناه الشامل تعريفًا وجغرافيةً. ولكن الفهم الأعمق لهذه العلاقات، عربيًا في هذا المقام، يتطلب الاستكشاف الدقيق والمباشر لدوافع أطرافها، من دون رهنه بالرؤية الذاتية وحدها. وللمفارقة، عدم إضفاء قدر من المبالغة عليها، سواء من ناحية حجمها أو تأثيراتها، وقبل ذلك كله ضرورة وضعها في سياقاتها التاريخية الدقيقة، وتفادي «الأدلجة» المفرطة والاستقطاب التحليلي، المسبق في واقع الأمر، الذي يتجاهل خطورة الوقوع في خللٍ منهجي واضح، ويحول دون قراءة المشهد الحالي على وجه صحيح.

نحو «تأصيل تاريخي»

استندت «دولة إسرائيل» ونخبها إلى تاريخ طويل، وإن كان بحجم محدود للغاية بشريًا، من الوجود اليهودي في عالم البحر الأحمر والبحر المتوسط، لإعادة تكوين صورة تبدو متماسكةً عن وجود يهودي عتيق في القارة الأفريقية على أطراف هذا العالم. ومثالًا، قدّم الأنثروبولوجي الإسرائيلي فران ماركويتز (1996)، خريطة بالغة التجريد «للعبرانيين الأفارقة»، معتبرًا أنهم انتشروا من هذا العالم إلى قلب النوبة وكوش على أطراف إثيوبيا (امتدت جغرافيًا حسب خريطته إلى أطراف بحيرة تشاد)، وصولًا إلى إقليم البحيرات العظمى، وغربًا بين قبائل اليوروبا والأشانتي. وحاول في دراسة له (قامت على عمل ميداني استغرق نحو ثلاثة أعوام، قوامه الاستشهاد بروايات الأهالي في المناطق المذكورة)، الاستدلال على أن «العبرانيين الأفارقة» يهودٌ خلص، في مزج إثني - ديني، واجه انتقاداتٍ من دوائر فكرية يهودية.

وقد حضرت أفريقيا في المشروع الصهيوني، عبر تعاطف بلاغي متبادل في أدبيات الجانبين، لم تغب بريطانيا عمليًا عن تفاعلاته بوصفها القوة العظمى والمؤسسة الأبرز في المشروع. ويصف محمد شهيد علام في مؤلفه (Israeli Exceptionalism: The Destabilizing Logic of Zionism، 2009) المصالح البريطانية في قيام «دولة إسرائيل» باختصار بالغ، في مفتتح فصله عن هذه المسألة، بأن إعلان بريطانيا وعد بلفور (نوفمبر/ تشرين الثاني 1917)، جعل من إسرائيل «الدولة الأم لمشروع بريطانيا الاستعماري»، معتبرًا، في مقارنة تاريخية بالغة الدقة والإحكام السياقي، أن العنف والمركزية الإثنية لروايات الغزو في العهد القديم تتسق تمام الاتساق مع حروب الدول البروتستانتية وأطماعها الاستعمارية في الأميركيتين وأفريقيا وآسيا؛ ما أضاف خلفية تاريخية مهمة للترابط البريطاني - الإسرائيلي، أو البروتستانتي - اليهودي بمعايير رؤية دينية، في المصالح والنزعة الاستعمارية، أخذًا في الاعتبار دور إدارة بريطانيا لفلسطين (1920-1948 تحت وصاية عصبة الأمم حتى رحيل آخر جنود بريطانيا من فلسطين في 30 يونيو/ حزيران 1948 بعد إعلان قيام «إسرائيل»)، في دعم قيام «دولة إسرائيل».

وفي مستوىً أحدث، إذا استثنينا العلاقة التاريخية «العضوية» بين إسرائيل وجنوب أفريقيا التي توجت باعتراف الأخيرة بالأولى في 24 مايو/ أيار 1948، فإن صلات إسرائيل بدول أفريقيا جنوب الصحراء تعود إلى منتصف خمسينيات القرن الماضي، وكان بعضها قبل حصول الدول الأفريقية على استقلالها. وفي 1956، أقامت علاقات دبلوماسية مع غانا، بما لذلك من رمزيةٍ كبيرةٍ لكون الأخيرة رائدة حركات التحرّر في منطقة غرب أفريقيا، تلتها خطواتٌ مماثلةٌ مع عدد كبير من دول أفريقيا جنوب الصحراء، وصل عددها في مطلع السبعينيات إلى 33 دولة. وبعد حرب أكتوبر/ تشرين الأول 1973 قطعت أغلب الدول الأفريقية علاقاتها مع إسرائيل، ما اعتبرته تل أبيب على خلفية وعود الدول العربية لنظيرتها الأفريقية بتقديم البترول بأسعار مخفضة ومساعدات مالية، والالتزام بقرارٍ قدّمته مصر لمنظمة الوحدة الأفريقية يدعو الدول الأعضاء إلى قطع علاقاتها مع إسرائيل. وعلى الرغم من ذلك، استمر التعاون الاقتصادي بين إسرائيل ودول القارّة عند مستوى ما، ولا سيما تقديم الخبراء العسكريين والاقتصاديين الإسرائيليين.

إسرائيل نموذجًا تنمويًا؟

عوّلت إسرائيل، وبدرجة فائقة من الوعي، على مفهوم القوة الناعمة، الذي صكّه عالم السياسة الأميركي جوزيف ناي، معتبرًا إياه «الوجه الآخر للقوة» الذي تفرض، من خلاله، القوى الفاعلة هيمنتها باستمالة الدول المستهدفة لتبني سياساتها والإعجاب بقيمها وتقليد نظامها السياسي والاقتصادي. وتربط الدولة الإسرائيلية المفهوم بالرسالة المكلف بها الشعب اليهودي منذ النص التوراتي «أَنَا الرَّبُّ قَدْ دَعَوْتُكَ بِالْبِرِّ، فَأُمْسِكُ بِيَدِكَ وَأَحْفَظُكَ وَأَجْعَلُكَ عَهْدًا لِلشَّعْبِ وَنُورًا لِلأُمَمِ» (إشعياء 42: 6)؛ الأمر الذي ترجمه ديفيد بن غوريون، أول رئيس وزراء لإسرائيل، بتوقعه في 1960 أن «صلاتنا مع الأمم الناشئة ستكون أفضل سبل تقوية مكانتنا في العالم»، وما لاحظه محللون كثر أن علاقات إسرائيل الأفريقية ساهمت، أكثر من غيرها، في خروج الأولى من عزلتها. وأوجز إيلي فرايد (2006)، ارتباط القوة الناعمة بسياسات إسرائيل في التعاون التنموي مع أفريقيا، مؤسسًا هذا الارتباط على رؤية بن غوريون، أن بقاء الدولة لا يعتمد فحسب على قوتها العسكرية، ولكن على تكوين فهم دولة لأخلاقها وشرعيتها الموروثة، ملاحظًا أنه مع تنامي قدرة إسرائيل (مطلع الألفية الحالية) على الدفاع عن نفسها، فإن قناعة المجتمع الدولي بوجوب «قيامها» لا تزال محل تساؤل متزايد؛ ما يتطلب من إسرائيل مواجهاتٍ غير عسكرية وحملات علاقات عامة.

وقد نشط «النموذج التنموي» الإسرائيلي لدى الدول الأفريقية بشكل خاص بعد تكوين قسم التعاون الدولي بالخارجية الإسرائيلية «الماشاف» (1958)، وما وفّره من إطار مؤسساتي لاتفاقيات تعاون تنموي بين إسرائيل و22 دولة أفريقية حتى 1973، وإرسال إسرائيل، في هذه الفترة، حسب تقديرات جويل بيترز، في فصل وثائقي وهام عن عودة إسرائيل إلى أفريقيا في ثمانينيات القرن الفائت، ضمن بحوث كتاب ذائع الصيت: Africa in World Policy (1987)، أكثر من ثلاثة آلاف خبير، واستقبالها أكثر من سبعة آلاف متدرّب أفريقي لحضور دورات مختلفة في إسرائيل. وكانت الزراعة القطاع الأبرز في التعاون التنموي الإسرائيلي الأفريقي. كما سعت إسرائيل إلى ترسيخ نموذجها التنموي خارج إطار المقاربة الثنائية مع دول القارّة، وبدور تقليدي مع القوى الاستعمارية الكبرى الفاعلة في القارّة. ويتضح ذلك في حث بن غوريون (1960)، الرئيس الفرنسي، شارل ديغول، على تكوين دولة استيطانية استعمارية في الجزائر، في مناطقها الزراعية الخصبة، على امتداد ساحل البحر المتوسط، ومن ثم استلهام «التجربة الإسرائيلية» في قلب الدولة العربية المهمة والكبيرة.

> عوّلت إسرائيل، وبدرجة فائقة من الوعي، على مفهوم القوة الناعمة للتمدد في القارة الأفريقية
>
> نشط «النموذج التنموي» الإسرائيلي لدى الدول الأفريقية بشكل خاص بعد تكوين قسم التعاون الدولي بالخارجية الإسرائيلية «الماشاف» (1958)

وقد تعرّض «النموذج التنموي» لهزّة كبيرة عقب حرب أكتوبر 1973؛ ففي مقابل ما اعتبرته إسرائيل جحودًا أفريقيًا لمقاربتها التعاونية قبل الحرب، ردّت بترقية صلاتها بجنوب أفريقيا في مطلع 1974، ورفضت الاستجابة لطلبات دول أفريقية لاحقًا لمواصلة مشروعات التعاون الفني، وخفضت، بنسبة كبيرة، الموارد المخصصة للقضايا الأفريقية، وتفاقمت العزلة الإسرائيلية في أفريقيا عقب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة في 1975 بمساواة الصهيونية بالعنصرية. وزاد تآكل دور الدولة الإسرائيلية «التنموي» بشكل ملفت جرّاء ما اعتبره باحثون إسرائيليون «انعزال الخارجية الإسرائيلية عن إدارة شؤون البلاد في أفريقيا، مفسحةً المجال أمام الشركات الكبيرة ورجال الأعمال». بينما زادت وزارة الدفاع من صلاتها العسكرية مباشرة مع كبار القادة الأفارقة، ووجهت نحو 35% من صادرات الأسلحة الإسرائيلية، في نهاية السبعينيات، إلى دول القارة الأفريقية. واستمر المسار الاقتصادي والعسكري يسير بسرعة أكبر من مسار استعادة صلات إسرائيل الدبلوماسية مع الدول الأفريقية على الأقل حتى العام 1982، عندما أعلن رئيس زائير، موبوتو سيسي سيكو، استعادة علاقات بلاده مع إسرائيل، على خلفية سعيه إلى التعويل على علاقات الأخيرة مع واشنطن في تعزيز سلطته، وهو المسار الذي اتبعه عدد آخر من قادة الدول الأفريقية، لتحلّ العلاقات الأمنية والعسكرية بين إسرائيل ونظم حاكمة بأجندات استبدادية متنوعة محل «النموذج التنموي» المضطرب في واقع الأمر.

وقد عكست السمة الانتقائية لصلات إسرائيل الدبلوماسية في أفريقيا المصالح المتغيرة في تلك الفترة، وعجز الخارجية الإسرائيلية عن المبادرة بتشكيل المرحلة الجديدة في العلاقات الإسرائيلية الأفريقية، عوضًا عن تصدّر «الماشاف» الذي مثل العمود الفقري للدور الإسرائيلي في أفريقيا لهذا الدور، وتحوّل برنامج مساعدات إسرائيل لأفريقيا للاعتماد بشكلٍ شبه كامل على التمويل الخارجي ومصالح الشركات الخاصة في أفريقيا، الأمر الذي نسقه «الماشاف» بامتياز.

ما بعد أوسلو 1993

بدأت العلاقات الدبلوماسية مع أفريقيا تعود بانتظام في الثمانينيات، وحققت طفرة كبيرة بعد تقدّم مفاوضات السلام العربية - الإسرائيلية. ووصل عدد الدول الأفريقية جنوب الصحراء التي لديها صلات دبلوماسية مع إسرائيل إلى 39 دولة. لكن على غير ما يروج عربيًا، فإن مسألة علاقات إسرائيل مع القارّة، حسب تأكيد ناعومي تشازان (في الفصل الافتتاحي لكتيب تأسيسي بعنوان «إسرائيل وأفريقيا» 2006)، شهدت تراجعًا بشكل ملموس في فكر الأولى وأولوياتها في تلك الفترة، حتى تداركت أهمية القارّة، وتابعت باهتمام عملية التكامل السياسي والاقتصادي بها، وتكوين الاتحاد الأفريقي. ولكن، كما لاحظ تشازان، لم يكن تهميش أفريقيا في ذهنية إسرائيل، في بداية القرن الحالي، نتيجة تغير الاهتمامات الدولية والإقليمية فحسب، لكن جرّاء عوامل «شعورية» أخرى.

وحضرت إسرائيل والقضية الفلسطينية، على خلفية هذا الاضطراب، في قلب رؤية أفريقية ماركسية في سياق جدل الاستشراق وصراع الحضارات. وهناك مثال بارز على ذلك لمؤلف الماركسي، بريان تيرنر، بعنوان ماركس ونهاية الاستشراق (2014)، قدّم فيه نقدًا أفريقيًا عاصفًا لأفكار الاستشراق (وفي قلبه مسألة القضية الفلسطينية)، مهد لاحقًا لنقد الأسلمة المبالغ فيها over - islamisation، وتفريغ التعقد التاريخي، وابتذال خطابات «الإسلاموفوبيا»، وأبرز ما اعتبره التزام الإسلام التاريخي بالعلمانية في ماضيه (نقلًا عن عزيز العظمة في بحث بعنوان Postmodern obscurantism and the 'Muslim question، 2002)، وفي الوقت نفسه، تسخير «الإسلاموفوبيا» لصالح (التغاضي عن) قضية «الأبارتهيد الإسرائيلي»، والتي استخدمت لعزل القضية الفلسطينية والتشهير بها. وللفكاك من مثل هذه التنميطات غير المنهجية، دعا ماركسيون مثل جلبرت آشار G. Achar (في مؤلفه عن الماركسية والاستشراق والكوزموبوليتانية، 2013)، إلى تمييز النزعة الأصولية، وكذلك علم اجتماع الأديان الماركسي، لفهم ديانات العالم بما فيها «تعاليم الإسلام»؛ فيما وضع آخرون الصراع العربي الإسرائيلي في سياق الديناميات العالمية وهيمنة القوة الإمبراطورية الأميركية، بما في ذلك إعادة صنع الشرق الأوسط بعد أحداث «11 سبتمبر» في 2001، ما أبرز التغيرات في الصهيونية المهيمنة كأيديولوجية سياسية، انتقلت من نزعة عمالية إلى ليبرالية، ثم إلى صهيونية دينية.

تكريس شراكة الهيمنة

لوحظت مبادرة نتنياهو، منذ منتصف العام 2017، بنشاط مكثّف في دول أفريقيا جنوب الصحراء، وكان أول رئيس غير أفريقي يشارك في قمة الجماعة الاقتصادية لدول غرب أفريقيا (إيكواس) في العاصمة الليبيرية، منروفيا، ثم شارك في نوفمبر/ تشرين الثاني من العام نفسه، في حفل تنصيب الرئيس الكيني، أوهورو كينياتا، وتزامن مع هذا التقدّم الدبلوماسي نمو الاستثمارات الإسرائيلية في إقليمي غرب وشرق أفريقيا التي تركز على المصالح الجيواستراتيجية والأمنية، وخصوصا تكوين قائمة حلفاء لدعم إسرائيل في الهيئات الدولية ومحاربة الحركات الجهادية، لكسب شركاء تجاريين جدد، والوصول إلى الأسواق الأفريقية، وهي استراتيجية ناجحة للغاية، لتشجيع الدول الأفريقية إسرائيل، وغيرها في واقع الأمر، للعب مثل هذا الدور من دون أية تحفظات تقليدية.

(باحث مصري)

آثار حرب أكتوبر

تعرّض «النموذج التنموي» الإسرائيلي في أفريقيا لهزّة كبيرة عقب حرب أكتوبر 1973؛ ففي مقابل ما اعتبرته إسرائيل جحوداً أفريقياً لمقاربتها التعاونية قبل الحرب، ردّت بترقية صلاتها بجنوب أفريقيا في مطلع 1974، ورفضت الاستجابة لطلبات دول أفريقية عديدة لاحقاً لمواصلة مشروعات التعاون الفني، وخفضت، بنسبة كبيرة، الموارد المخصصة للقضايا الأفريقية، وتفاقمت العزلة الإسرائيلية في أفريقيا عقب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة في 1975 بمساواة الصهيونية بالعنصرية.